احتلال بحر الغزال

٦

العودة الى المشرع وقلة العمل

وعدت مع البكباشي هيمس الى مشرع الريك فاقام هناك اياماً ثم ارتحل الى واو وقال لي قبل سفره جبذا لو سرت معي بضعة ايام نقضيها في الحديث والصيد وتكون في ضيافتي انت وحمارك قلت وما شأن الحمار في هذه الدعوة قال لحمل الزاد واياك ان تأخذ معك شيئاً من الطعام او الشراب بل ارسل اليّ الحمار قبل سفرنا فارسلته محملاً من الاطعمة الوانا ومن الاشربة كل ما لذ وطاب وسرنا معاً ثلاثة ايام نصطاد ونأكل ونشرب فكان سيرنا نزهة لا سفراً ثم ودعته وعدت الى المشرع وما فيه من الوحشة

واستحوذ علينا الضجر هناك لقلة العمل وكان متوسط عدد المرضى في المستشفى خمسة او ستة والامراض الغالبة الملاريا والدوسنطاريا وذات الرئة . وكان المستشفى اربع خيم صغيرة من النوع الهندي المعروف بالجبلي وهي خيم مسمّاة ذات سقفين بينهما مسافة قليلة وقد جعلت كذلك للوقاية من الحرّ . وهي خفيفة الحمل لا يزيد وزن الواحدة منها عن واحدتها واوتادها على ١٥٠ ليبرة اي ٥٤ اقة ويسهل نصبها وتقويضها واذا كانت منصوبة في ارض جافة صلبة لا تقوى الرياح على اقتلاعها . وكانت الادوات والعقاقير والاغذية الطبية في صناديق صغيرة مرفوعة عن الارض خوفاً من الارضة وهي كثيرة جداً هناك

المستر فل

وجاء المستر فل في مساء احد الايام من بحر الجور لاخذ المؤونة للجنود الذين يعملون معهُ في ازالة السد وكان قد مضى عليهِ نحو شهرين وهو مقيم في باخرة بعيداً عن البر يكتنفهُ الماء والعشب من كل ناحية فصعدت الى الباخرة لاراهُ فقال لي اجلس فقد مضى عليّ زمن لم احادث فيهِ احداً فجلست وما أكلت اقل سآمة منهُ واخذنا نتسامر على ظهر الباخرة حتى لاح الفجر فانصرف كل منا الى فراشهِ . وكان المستر فل هذا من رجال البحرية الانكليزية برتبة ملازم فاستقال منها بعد انتهاء هذه الثورة وعين في حكومة السودان برتبة بكباشي ثم رقي الى رتبة قائمقام وقد شهد بعض الوقائع في بلاد النهائم ثم توفي في بحر الغزال مأسوفاً عليهِ من

جميع ما فيه وما جبل عليه من اللطف وكرم الاخلاق وما اتاهُ من الاعمال في تلك البلاد كازالة السد في اعالي النيل وتواصره وتعيين العرض والطول لاكثر المواقع

بداءة فصل المطر

وبدأ فصل المطر في شهر مارس واخذت الحمى الملارية تصيبنا الواحد بعد الآخر فلم ينجُ منها احد من البيض لكنها لم تكن شديدة الوطأة في اول الامر . واخذت الطيور القواطع تمرُّ بنا في انتقالها فمر بنا في احد الايام سرب من الحواصل لا يحصى عددهُ فنزلت هناك وغطت النهر والغيران والمستنقعات وكان الماء فيها ضحضاحاً فاخذت تصيد السمك على مرأى منا لا تكاد تجو سمكة منها . وقد تركت كثيراً من السمك الميت مما لم نقدر على حمله في حواصلها لكبره فجاء النساء وجمعنهُ . وصدت ثلاثة طيور كبيرة منها بلغ وزن الواحد عشر اوقات وكان في حوصلة احدها سمكة حية وزنها ٥٠ درهم . وبقيت الطيور هناك يوماً كاملاً صادت فيهِ من السمك ما شاءت ثم ملأت حواصلها به ليكون زادها في السفر وارتحلت . ورأيت هناك نوعاً من اللقلق يعرف عند عرب السودان بابي سعن سمّي بذلك لكيس متدلٍ من عنقهِ كالسعن اي الجراب . وهو قبيح المنظر لكن تحت اصل ذنبهِ ريش ابيض ناعم جداً يزين بهِ الرجال رؤوسهم في تلك البلاد وقد اقتدت بهم نساؤنا فاتخذنهُ للزينة وهو الطائر المعروف عند الافرنج بالمرابو وصيدهُ ممنوع في السودان . وكثر البط والاوز والقطا والقمري فكنا نصيد هذه الطيور ونحن جالسون امام خيمنا

نفاد التبغ

ونفد منا السكر واللبن والتبغ وتأخر وصول البريد فاستعضنا عن اللبن بالشاي وعن السكر بالعسل واقراص السكرين اما التبغ فلم يضنا شيء عنهُ . وتوالت عليَّ رسائل صديقي الدكتور نجيب شديد من التوغ يطلب فيها ان ارسل اليهِ شيئاً من التبغ او السكاير وهو يظن انني في نعيم من التبغ اتمرّغ في سكاير جنكليس ولا يدري انني كنت في ضيق اشد من الضيق الذي كان فيهِ . ثم وصلت الباخرة بعد ايام وعليها الف سيكارة لي فارسلت اليهِ بعضها مع كامل افندي واقسمت عليهِ ان يعفهُ لي بعد عودتهِ وهو يدخن سيكارتهُ الاولى . ولا ادري ايما كان اشد ولعاً بالتدخين من الآخر

المسير الى واو

وبقيت في مشرع انريك ستة اشهر كاملة في سجن فارسلت كتاباً الى البكباشي عيس

قلت لهُ فيهِ انني لم اعد اطيق الاقامة هناك فكتب اليَّ يقول انهُ سائر مع مباركس بك الى بلاد النام وطلب مني المجيء الى واو لاستلام اشغالهِ في غيبتهِ وارسل البكباشي بلتوى كتاباً آخر طلب فيهِ من قومندان المشرع ان يرسل معي عشرين حماراً محملة مؤونة وسبعة عشر جندياً لحراستها فقلت في نفسي الحمد لله لقد ارتحت من حفر الآبار الى قيادة الحمير . وسرت من المشرع في الثاني من شهر يونيو وكانت الحمير محملة ذرة ودقيقاً وبقسماطاً الذرة في اكياس من الخيش والدقيق والبقسماط في اكياس من النسيج الكتيم الذي لا ينفذهُ الماء . فقطعنا اربعين ميلاً في الايام الثلاثة الاول وكان سيرنا صعباً جداً لان الدواب كانت مثقلة بالاحمال وفي هزيلة منهوكة القوى بسبب المرض والتعب وكان البكباشي بلتوى قد الحَّ عليَّ بسرعة السير لأن الجنود كانوا في اشد الحاجة الى المؤونة في واو . وكان فصل المطر قد بلغ منتهى الشدة والسيول قد غمرت الطرق في بعض الاماكن . وفي اليوم الثالث عصفت رياح شديدة ثم اكفهرت السماء وقصفت الرعود وهطل مطر غزير لم ارَ مثلهُ في الشدة وكان ذلك اول عهدي بالامطار الاستوائية فانهُ قد يقع من المطر في ساعة واحدة هناك قدر ما يقع في يوم او اكثر من يوم في مكان مثل بيروت . ثم جرت السيول وغمرت الارض امامنا فكنا لا ندري اين الطريق . ولاحت لي قرية عن بعد فاسرعت بالدواب الى اقرب بيت منها فرأيت فيهِ جماعة من السود جالسين حول النار فانزلت الاحمال واويت الحمير . وكنا قد رأينا قطيعاً من الفيلة قبل وصولنا الى القرية فرجعت اليهِ وصدت ثيتلاً منهُ فجاء العساكر وحملوهُ الى القرية وبتنا ليلتنا هناك

غرق الحمير في الطين

ولما نهضنا للسير في اليوم التالي وجدنا احد الحمير قد رزح من التعب والمرض فاطعمت الحمير الاخرى ما عليهِ من الذرة وتركتهُ عند الاهالي وطلبت منهم ان يعيدوهُ الى المشرع متى قوي على السير فلحق بي رجل بعد يومين ومعهُ حافر من حوافرهِ دليلاً على موتهِ . وكان سيرنا في هذا اليوم اصعب من سيرنا في اليوم الذي قبلهُ لكثرة الماء والطين وكان السيل قد محا آثار الطريق فصارت الحمير ترتطم في الطين فتغرق احياناً الى بطونها فنفشلها منهُ . ومررنا قرب بيت فخرج منهُ رجل وقال انكم تائهون عن الطريق وسار امامنا يدلنا عليها فعجبت لهذه المروءة التي لم اعهدها في الدنكا وقلت لعل وراء الاكمة ما وراءها ولم نكد نسير غلوة حتى اخذت الحمير ترتطم في الطين فقلت للرجل قد كنا سائرين على طريق افضل

من هذه واقرب وعلمت من هيئته انهُ خدعنا حتى لا غرو في زرع لهُ هناك فلا درى ان امرهُ قد افتضح اعطى ساقيهِ للريح

الكوجور اي الساحر

وكان اليوم الخامس شديد الحرّ جدًّا والطريق التي سرنا عليها جافة لا ماء فيها وتعبت الدواب كثيراً فتركت الجنود معها يسيرون على مهل واخذت غلاماً كان يحمل بندقيتي وراويتي وسبقتهم افتش عن مكان فيهِ ماء نزل عليهِ وكان الغلام لا يفهم من العربية الاَّ كلمات قليلة ولاح لي بيت وجهت خطواتي اليهِ فرأيت هناك رجلاً يعمل في زرعهِ فقلت لهُ « فيو » رمعناها الماء بلغة الدنكا فلم يرد عليَّ فكلمهُ الغلام بلغتهِ وطلب منهُ ان يدلنا على الماء فقال « الو » وهي اداة النفي عندهم ولطالما سمعتها منهم فكنا مهما طلبنا من الواحد منهم يقول « الو » . فقلت للغلام قل لهُ ان يدلنا على الماء وياخذ اجرتهُ فقال لهُ ثم دلنا على الماء فلم يتحرك فكلمهُ مغضباً وقلت لهُ ثم ارنا الماء فاحمرت عيناهُ ونهض واقفاً وكان في يدهِ اليسرى حربة وفي اليمنى دبوس ضخم فهجم عليَّ ورفع دبوسهُ فوق رأسي واخذ يرغي ويزبد ويتكلم بكلام لم افهمهُ واظنهُ كان يسب لعنائهِ عليَّ وكانت هيئتهُ تدلُّ على شدة غيظهِ مني وهو يهز دبوسهُ كانهُ يريد ان يهوي بهِ على رأسي فقلت في نفسي لعل الرجل معتوه او ربما ظنني وحدي ورآني اعزل فاحب ان ينتقم من الجنس الابيض . وهممت ان اضع يدي وراء ظهري وآخذ البندقية من الغلام فانني كنت اذا رأيت صيداً اضع يدي وراء ظهري فيناولني البندقية من غير ان اكلمهُ لكنني خشيت انني اذا فعلت ذلك زاد هياج الرجل واضطررت ان اقتلهُ دفاعاً عن نفسي فبقيت واقفاً انظر اليهِ وقلت للغلام ماذا يريد هذا الرجل وماذا يقول قال « كوجور » قلت ما معنى كوجور قال كوجور فوقعت في حيرة لا ادري أأقتل هذا الرجل دفاعاً عن نفسي ام ابقي فحت رحمة دبوسهِ فانهُ لم يكن بيدي غير عصاً صغيرة قد لا تقيني من ضربة الدبوس اذا نزل على رأسي واذا امرأة خرجت من البيت وقبضت على الرجل وساقتهُ فسار معها مكرهاً وهو يرغي ويزبد فتركتهُ وسرت الى بيت آخر فرأيت هناك رجالاً دلوني على الماء وجاءوا بشيخ القرية فاعتذر عن الرجل وارسل رجالهُ فجاءوا بالعساكر والدواب وعلمت بعد ذلك ان كوجور معناهُ ساحر او ولي

جمال الغابات

وكانت الغابات التي سرنا فيها من اجمل ما وقعت عليهِ العين ولا اظن الجنان الاربع

التي اكثر العرب من وصفها اجمل منها وكان المطر قد زادها جمالاً فكانت الارض كلها مغطاة بالاعشاب والبقول يسرح فيها بقر الوحش والزراف والنعام وتغرد الطيور المختلفة الاشكال في اشجارها . وضجرت من الصيد فكنت لا اقتل الشبل ولو كان على الطريق امامي ما لم اكن في حاجة الى لحمه لاطعام العساكر . ونزلنا مرة للجبيت على بركة من الماء فرأيناهناك قطيعاً من الشياتل فلم نتعرض لهُ ولما اظلم الليل اخذت الاسود تطرب بنا بزئيرها وبقيت تزأر الليل كلهُ فلما اصبح الصباح اذا الشياتل باقية هناك لم تبرح مكانها فكأنَّ زئير الاسود راعها فبقيت هناك مستأنسة بنا . وقد وصفت اشجار بحر الغزال في رسالة سابقة لكنني رأيت من انواع النبات هذه المرة ما لم ارهُ في هذه البلاد قبلاً . منها نوع من العنب البري لم يكن اوان ثمره حينئذٍ فجمعت شيئاً من ورقهِ وطبختهُ كما نطبخهُ في الشام . ورأيت من البقول التي تنمو من نفسها الباميةَ والملوخية والرجلة المعروفة في الشام بالبقلة او الفرفحين . وكان الريحان المعروف في الشام بالحبق كثيراً جداً . واظن هذه الاصناف كلها اصلية في بحر الغزال

الشيخ ايوم

ووصلنا في اليوم السادس الى حلة الشيخ ايوم وكان شيخاً هرماً قديم العهد جداً لقيناهُ مستلقياً تحت شجرة كبيرة امام منزلهِ وحولهُ جماعة من رجالهِ فنزلنا هناك . وكان الجنود قد فرَّت نفوسهم من لحم الصيد فطلبوا مني ان اشتري لهم خروفاً سميناً من خرفان الشيخ فقلت لهُ اتبيعني خروفاً قال عار عليَّ ان افعل ذلك بل اقدمهُ اليك هدية . فقلت سبحان الله ماذا اصاب الرجل حتى حل بهِ هذا الكرم الخاتمي ثم قلت في نفسي لعل في الدنكا وبين رجلاً صالحاً وقبلت الهدية منهُ واهديت اليهِ ثوباً من الدمور فاخذهُ وقلبهُ بين يديهِ ثم نشرهُ والتف رجالهُ حولهُ واخذوا يتباحثون فيما بينهم فظنتهم معجبين بالثوب ثم طووهُ واعادوهُ اليَّ وقالوا ردَّ الخروف فان هديتك لا توازي ثمنهُ . وكان الجنود قد ذبحوا الخروف فلم ارَ بدّاً من ارضاء القوم فاضفت الى الثوب ثلاثين خرزة فقبلوا الهدية . وعلمت بعد ذلك ان الشيخ ايوم هذا كان لهُ شأن مع الزبير باشا في الزمن السالف قاسر الزبير بجلادهِ . وقد رأيت في منزلهِ نحو خمس عشرة امرأة قيل لي انهنَّ زوجاتهُ . وسألت عنهُ بعد عودتنا من بحر الغزال فقيل لي انهُ توفي وانضم الى آبائهِ

الدكتور
امين المعلوف